(٦)

« القناة لمصر .. لا مصر للقناة »*

قبيل افتتاح قناة السويس قال إسماعيل: أريد أن تكون القناة لمصر لا مصر للقناة. ولكنه لم يكن على مستوى كلمته. حتى أسهم مصر فى القناة باعها. ولكن أبناء مصر الذين انتزعوا بلادهم من آل إسماعيل كانوا على مستوى هو أعلى من كل ما قال إسماعيل. والقناة اليوم ملك لمصر وحدها ، وهى مفتوحة لخير الدنيا كلها.

طوال القرن الماضى كانت مصر تعانى آلام المخاض من مصر العصور الوسطى المريضة الهزيلة التى بدت فى اللوحات التى رسمها رجال الحملة الفرنسية شبحا عليلا راقدا فى غيبوبة القرون – كان لابد أن تولد مصر الحديثة من الجسد العليل الساجى فى عالم الظلام دهرا طويلا ، كان لابد أن تولد مصر جديدة دافقة الحيوية متجددة النشاط.

ويوم الشتاء الطويل ثم اليقظة منه والعودة إلى الحياة خاصة من خصائص مصر تنفرد بها من بين الأمم ، فمصر تنهض وتنشط وتفتح وتبنى وتنشئ كما تفعل الأمم الأخريات ، ثم يدركها التعب كما يدرك غيرها. ولكنها – بخلاف غيرها – لا تموت كما ماتت دولة الرومان أو الفرس الساسانيين ، ذهبنا إلى غير رجعة. إنها تنام وتدخل فى غيبوبة شتاء حضارى لتنهض من جديد وتواصل الحياة.

وآرنولد تويبى وضع مصر القديمة فى الحضارات المتحجرة PETRIFIED ولم يضعها قط فى الحضارات البائدة EXTINCT أو الحضارات الموقوفة ARRESTED لأنها تنام وتصحو. وتنام وتصحو. ولكنها لا تموت.

ومدافع موقعة الأهرام أو موقعة إمبابة التى قضت على طاغوت المماليك الشراكسة أيقظت مصر – تلك الجميلة الراقدة فى الغابة تنتظر قبلة

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٠ يونيو ١٩٨٢م .

الحياة – فنهضت تنفض التراب وتلم الشعث واندفعت فى نهوضها اندفاعا ريع له الآخرون. لأنها وجدت فارسًا نجدًا قادرًا على إيقاظها والفارس هو محمد على وفى أقل من عشر سنوات كانت مصر على قديمها أمة جديدة ذات دولة وحكومة ومالية وجيش ، واندفعت تستكمل كيانها الطبيعى. وهو وحدة وادى النيل ففى سنة ١٨١١م بدأ التفكير فى فتح السودان.

ومحمد على الفارس الذى أيقظ مصر ، خاف من مصر. الفلاحون الذين كان محمد على لا يتصور أنهم يصبحون جنودا اجتاحوا جيوش الأتراك فى مواقع ترمب وفوقية واحتلوا أزمير وظهورا أمام بورسة على الضفة الغربية لبحر مرمرة ، وأرغموا المارد التركى على توقيع معاهدة كوتاهية. هذه الانتصارات كانت تؤلم محمد على لم تكن تقارير ابنه إبراهيم وقائده الكولونيل سيف نسره كان يحسب أنه يستعمل مصر للقفز على الصدارة العظمى فى استانبول ولكن مصر استخدمته هو لبناء نفسها.

وخلال فترة الحكم المصرى لبلاد الشام (١٨٣٠م – ١٨٤٠م) حدثت معجزة أخرى: لقد أيقظت مصر بلاد الشام. فنهضت هى الأخرى من رقدة القرون. كل ما تقرأه عن النهضة الحديثة فى بلاد الشام وانفتاح الباب أمام الإرساليات وقيام الحركة الفكرية فى بلاد الشام والكلام عن البستانى واليازجى كل ذلك ثمرة السنوات العشر التى امتدت فيها دولة مصر فشملت بلاد الشام.

ومحمد على الذى أذهلته المفاجأة سارع بسحب جيشه من الشام أمام جيش إنجليزى صغير يقوده البريجادير فايير وحمد الله على أن تركوا له مصر. ثم ذهب عقله. وفى ذات يوم صحا ليعلن الحرب على إمبراطورية النمسا والمجر لأنها عزلت امبراطورها وكان له صديقًا. وركب مركبا يسير به فى النيل إلى الإسكندرية ليشرف على إعداد الجيوش والأساطيل.

وعزلوه وولوا إبراهيم – الوحيد من بيت محمد على الذى عرف قدر الفلاحين فأحب مصر. ولكن إبراهيم مات. وفى غمرات الذهول مات محمد على وأقاموا بعده عباس . اختاروه لأنه كان أجهل أبناء محمد على لا أعبائم لم يرث خصلة إيجابية واحدة من خصال محمد على ولكنه ورث كل السلبيات: أكبرنا الخوف من المصريين. الخوف من الفلاحين وهذا هو الاسم الذى أطلقوه إذ ذاك علينا ، لقد شرفونا من حيث أرادوا إهانتنا. هذا التشريف عبر عنه عبقرى من عباقرة مصر أبلغ تعبير العبقرى هو محمود مختار الذى مازال إلى يومنا هذا أعظم مثال أنجبته مصر الحديثة. وسر عبقرية محمود مختار أنه تناول المطرقة والأزميل من آخر مثالى مصر القديمة وصنع تمثالا لمصر فى صورة فلاحة. ولم يصورها فى هيئة خاتون أو خانوم أو هانم تركية اسمها جلبهار أو جلفار ، إنما فلاحة بالطرحة الفاتنة والبلاص.

والخوف من مصر ورثه كل أبناء محمد على وأحفاده ، وهذا الخوف الذى ربط بين أسرة محمد على وأوروبا ، لأن أوروبا الاستعمارية روعتها نهضة مصر ، فقررت القضاء عليها ، وبالمرستون عبقرى السياسة البريطانية فى النصف الأول من القرن الماضى كانت تخيفه ثلاثة أشياء: الثورة الفرنسية ومصر ثم روسيا ، كراهية فى مصر حالف فرنسا. نفس الشىء سيتكرر بعد عشرات السنين كما سنرى فى حكاية قناة السويس: لم يجمع بين انطونى أيدن وجى وكريستيان بينو إلا الحقد على مصر.

وخلفاء محمد على المذعورون من مصر احتموا فى أوروبا المبغضة لمصر تلك كانت خطيئتهم الكبرى التى ضيعت كل محاسنهم لأننا نخطئ عندما نجرد أبناء محمد على من كل حسنة ، فقد كانت لهم حسنات ، ولكن خطيئة واحدة غطت على كل الحسنات وقضت على البيت كله فى النهاية: الخوف من مصر ، الخوف من شعب الفلاحين العاملين بالمقاطف

كما قال بلسانهم عثمان رفقى فى مواجهة مصر متمثلة فى صورة فلاح من هرية رزنة اسمه أحمد عرابى.

لهذا كان لابد أن تعانى مصر مخاضًا جديدًا لكى تولد مرة أخرى ، لكى تتخلص من ولى أمرها المذعور منها الذى استعان عليها بالأجانب. بعد آلام الميلاد كان على مصر أن تعانى الآم الميلاد الثانى. النيسانس والرنيسانس فى قرن واحد. شىء لم يحدث إلا مرة واحدة فى التاريخ. وهذه المرة كانت فى مصر.. لا عجب إنها أم الدنيا ، هذا الميلاد وعودة الميلاد فى نفس واحد ستعيده مصر نفسها على أرضها وعلى أيدى أبناء الفلاحين ، سنعيده فى ملحمة قناة السويس. كان الموسيقى فيردى إذا سئل عن أحب أعماله إليه قال: عايدة. ويقول له فرانز ليست: كيف أيها الرجل وعندك ما هو أعظم منها: الترافيانا والتروفاتورى وريجوليتو ، فيقول: لا أدرى.. أنا حبيبتى عايدة ، نشيدها الذى تبكى فيه حبيبها الشهيد يملأ نفسى. عنده حق. إنها مصر العائدة مصر التى تعود دائما. مصر الجميلة الراقدة فى الغابة.

وإذا كان الميلاد أليما فقد كانت عودة الميلاد أشد إيلامًا.. عودة الميلاد هى عودة الروح التى تحدث عنها توفيق الحكيم ، إنها طريق الآلام أو الفيا دولوروسا. ما أكثر ما عانته مصر فى هذا الطريق. الخيانات بلا نهاية. النهب بلا حدود.. والإفلاس بلا خجل والاحتلال بعد معركة لم تدم إلاعشرين دقيقة.. ضياع قناة السويس.

إلى تأميم القناة فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢م كانت قناة السويس مأساة مصر الكبرى فى العصور الحديثة ، قصتها تجمع كل آلام مصر ، كل صنوف الهوان التى عانتها ، لأن فردينان ديليسبس عندما فكر فيها كان يرى أنه لابد من قتل مصر لتعيش القناة. ليس هذا جديدا ولا غريبًا فى منطق الاستعمار.. لكى تحتل بريطانيا الهند بدأت بقتل الهند.. إذ ذاك كانت

الهند الإسلامية ، أرادت أن تقتل الهند الإسلامية لتعتمد بعد ذلك على السيخ والجوركا والروهبلا والمرتزقة من المارهاتها ، وعندما أرادت الولايات المتحدة حفر قناة بناما بدأت بقتل بناما. فصلتها عن أمها كولومبيا لتنفرد بها. فى مصر كانت العملية أسهل لأن ولى أمر مصر: الباشا ثم الخديو كانا يدا واحدة على مصر ، وديليسبس عندها أخذ امتياز حفر القناة من الباشا محمد سعيد أخذ معه قطعة من لحمها قريبة من القلب ، مثله فى ذلك مثل شيلوك فى مسرحية سيكسبير الخالدة.

وصك الامتياز كان ورقة لا يضمنها إلا باشا سمين ، تركيا كانت لا تريدها وبريطانيا لا تريدها وشعب مصر لم يعلم بأمرها ، كان لابد من ضامن أقوى. هذا الضامن كان فرنسا استطاع ديليسبس أن يقنع فرنسا بأنها ستكون قناة فرنسية تجرى فى مصر. والفرنسيون سياسيًا وحضاريًا تنبوا القناة وأعطوها جنسيتهم ، اسمها الرسمى كان فرنسيا ، ومركزها كان فى باريس ، ولغتها كانت فرنسية ، عندما تجلس فى بيت ديليسبس فى الإسماعيلية تشعر وكأنك فى بيت نبيل فرنسى فى ضواحى باريس ، كل ما حولك فرنسى. والكتب فى المكتبة فرنسية والأشجار التى تطل عليك من النوافذ فرنسية: بوتسيان وبوجان فيلييه. فى الماضى كان هذا كله يؤلمنا أما اليوم فكله يسرنا. وأمنا مصر روضت ديليسبس وجعلته جزءًا من تاريخها ، أعمق الجروح التى عانت مصر منها أثناء المخاض وهو جرح القناة اندمل وأصبح رمز فخارها. هل تذكر حديث رسول الله ﷺ وهو يرى جراح عمه الشهيد حمزة بن عبد المطلب ، لم يؤلم الرسول شيء كما آلمته جراح حمزة الشهيد ولكنه قال إنه يبعث يوم القيامة وجراحه لها ريح المسك ، هذا أيضًا يصدق على قناة السويس.

خطر ببالى ذلك كله وأنا أصغى إلى حديث راعى القناة اليوم مشهور أحمد مشهور ، إنه رابع أربعة حولوا رمز الهوان إلى رمز مجد:

جمال عبد الناصر ومحمود يونس ومشهور أحمد مشهور وأنور السادات. هكذا على الترتيب كلهم فلاحون أبناء فلاحين: عبد الناصر من بنى مر ، ومحمود يونس من قرية القنايات فى الشرقية ومشهور من السعديين مركز منيا القمح، وأنور السادات من ميت أبو الكوم منوفية ، كان مشهور أحمد مشهور يحدثني عن القناة فى هدوء الفلاح الأصيل وإيمان ابن القرية الكريم، لم يكن بحاجة إلى كلام ؛ لأن كل ما كان حولى كان يتحدث عن جلال أبطال ملحمة القناة ، ينبغى أن تعرف محمود يونس ومشهور أحمد مشهور لكى تعرف أن جلال ملحمة القناة لا يرجع فحسب إلى قرار التأميم بل لأن الذين تولوا تنفيذ القرار كانوا على مستواه ، والتأميمات ما أكثرها وما أكثر مآسيها أيضا. كم من جنايات جنتها على مشروعات كانت ناجحة فجعلتها رمز خراب ، إلا قناة السويس.

عندما أعلن جمال عبد الناصر فى مساء ٢٦ يوليو ١٩٥٦ قرار تأميم القناة بصوته المعدنى المتدفق ، كان يعلم تماما أنه يعلن عن عصر جديد من عصور التاريخ: عصر نهاية الاستعمار ، الاستعمار ليس مجرد احتلال أرض ، بل هو فى نفس الوقت انتهاك لكرامة شعب وإذلاله ووضع قدم المستعمر على رقبته ، عندما ينهض المغلوب ويأخذ السيف ويضرب ساق المستعمر فلابد أن يسقط الطاغية. هذا بالضبط هو الذى فعله عبد الناصر بقرار تأميم الشركة العالمية (الفرنسية) للملاحة. الرجل التى قطعها كانت رجلين: واحدة فرنسية والأخرى إنجليزية ، والاثنتان أحستا بهول الصدمة. والدنيا كلها وقفت ذاهلة فللمرة الأولى ينهض من أبناء القارتين المظلومتين أفريقيا وآسيا فتى شهم ويضرب بالسيف بين عينى الجبار. كل سيوف المظلومين خرجت من قربها لتضرب كل الطغاة الذين كانوا يذلون كل البشر ، حتى بلاد أمريكا اللاتينية استجابت للنداء وتذكرت آلامها على أيدى الولايات المتحدة ، ومن ضاحية من ضواحى مدينة المكسيك وصلت القاهرة برقية تهنئة من لاثارو كارديناس الرئيس الذى عزلته الولايات المتحدة وحكمت عليه بالنفى داخل بلاده لأنه أمم بترول بلاده.

كان لابد من عقاب عبد الناصر إذن حتى لا يتحول الأمر إلى ثورة عبيد الدنيا.

اسباتاكوس الجديد لابد أن يلقى للسباع. السباع كانت الأسد البريطانى والفهد الفرنسى والثعلب الإسرائيلى. والسيد انطونى ايدن أنيق السياسة البريطانية وخليفة وينستون تشيرشل ورمز «البير» الإنجليزى الذى أفلس وهو لا يدرى أنه أفلس اتصل بجى موليه وكريستيان بينو وهما ابنا آوى من بنات أوى التى كانت تقود السياسة الفرنسية التى قادت فرنسا إلى مآس مثل بيان ديان فو قبل ديجول وعصره أيامها كانت حرب الجزائر على أشدها ، ومصر الفارسة أيام عبد الناصر كانت تعتبر كفاح شعب الجزائر المجيد جزءًا من كفاحها ، ورجال عبد الناصر فى أوروبا وهم الملحقون العسكريون فى السفارات كانت مهمتهم الثانية هى خدمة ثورة التحرير الجزائرى ، ورجال كثيرون ممن قاموا بهذه المهمة من أمثال ثروت عكاشة وعبد المنعم النجار وعيسى سراج الدين وغيرهم ممن لم أسعد بمعرفتهم ينبغى أن يكتبوا ما يعرفون من صفحات هذه الملحمة ، وجمال عبد الناصرروبن هود ذلك العصر كان لابد أن يعاقب عندما أعلن تأميم القناة قالوا: جاءت منه ولم تجىء منا. الآن نقتله بسيف القانون ولن يلومنا أحد.

ومن ركن صغير فى تل أبيب حيث كان يقبع كالثعلب بين القصب مواطن تركى يهودى قديم يسمى بن غوريون. مازالت صورته بالطربوش وورقة مروره التركية باقية إلى اليوم ، هذا الرجل الذى اشترك مع عتاولة الصهيونية فى إقامة دولة الدموع جعلها مع أصحابه دولة الدم. والأسلحة التى كان يتلقاها ليستعيد بها ما سماه بكرامة شعبها استعملها لإذلال الآخرين. كأس الذى الذى شربه شعبه على أيدى الأوروبين أراد أن يصبه فى حلوق العرب وأسرع ليشترك مع إنجلترا وفرنسا فى عقاب مصر على

تأميم قناة السويس. وكانت حرب السويس سنة ١٩٥٦م. إنها حرب عجيبة انتصر فيها عبد الناصر المنهزم ، وانهزم فيها ايدن وجى موليه المنتصران ، أما دافيد بن جوريون فقد تحول من ثعلب إلى ثعبان ، وعلى هذه الصورة يدخل التاريخ.

ولكن هذا الدوى السياسى العسكرى الهائل ما كانت تكون له فى آخر المطاف قيمة بالنسبة لنا فى مصر لو لم تكن الجماعة التى تلقت من جمال عبد الناصر الأمر بتنفيذ القرار فرقة شرف ، إنها تستحق اسم اللجيون دونير المصرية وميداليتها بكل جدارة هنا تتحدث عن أبطال ملحمة القناة محمود يونس ومشهور أحمد مشهور واللذين معهما. إنها قصة مجد تكتب وترى. إنها «ليبرو اوديو فيلم» كما يقال فى مصطلح النشر الحديث.

نحن نتحدث هنا عن رجلين كانا إذ ذاك شبابًا فى الثلاثينات. كلاهما كان مهندسًا دخل الكلية الحربية بعد الجامعة. محمود يونس كان من دفعة عبد الناصر ومشهور كان من دفعة تليهما. مادمنا نتحدث عن قناة بحرية. فلنقل: إن يونس كان الأميرال ومشهور كان الفيس أميرال ، لم يكونا يعرفان الكثير من شئون القناة عندما هبا لتسلم القناة وإلغاء جواز سفرها الفرنسى وإعطائها جواز سفر مصريًا.

كما قلت لك إن قرار التأميم كان من الناحية السياسية العسكرية زلزالا ، ولكنه من ناحية الإدارة كان قرارًا إداريًا. هنا تكمن عبقرية فرقة الشرف التى عرفت كيف ترتفع بالقرار إلى أعلى معانيه وجعلت جرح المهانة رمزًا نجاح وتوفيق ومجد لمصر ، له المسك كما قال المصطفى صلوات الله عليه.

الميزة الرئيسية لفرقة الشرف هذه هى أنها أحبت مصر حبًا صادقًا وحب مصر ليس كلمة ولا أغنية ، إنه وجود الإنسان كله إنه عمل وتطبيق، كان الربان محمود يونس ومساعد الربان مشهور أحمد مشهور يشعران تماما بجلال المسئولية التى حملاها.

كانت تلك فرصتهما للخلود هما ومن معهما عملوا فى صمت ، العمل الصادق يتم دائما فى صمت لأن الحب العظيم صامت.

والأم التى تعول بالبكاء عندما يسافر ابنها لا تحبه ، إنها تحب نفسها وتقول للناس: انظروا كيف أحب ابنى! والدعاية الأوروبية إسرائيلية ضد الإدارة المصرية للقناة لم تلبث أن خفقت وصمت لأن شباب مصر الذى تولى أمر القناة عرف كيف يكسب التحدى. والقناة التى كانت قبل ٢٦ يوليو ١٩٥٦م فرنسية لا تتكلم إلا الفرنسية أصبحت مصرية تتكلم العربية. حتى حرب القناة ومعركة السويس لم تهز فى كيانهم شعرة. استمروا فى عملهم فى صمت وجد ، والحرب من حولهم دائرة وثعالب بن جوريون يحتلون سيناء ، وقوات الغزو تهبط على شط لسان الجميل وتسير نحو بورسعيد وتدور معركة بورسعيد ، كل ذلك وفرقة الشرف تعمل.

لقيت محمود يونس أيامها فى دار أخيه الأديب العالم عبد الحميد يونس نفس الوجه المصرى الأسمر الباسم ونفس العينين الواسعتين اللامعتين، كان يزور ابنته الصغيرة ساعة ، عاد بعدها إلى القناة، قال فى بساطة الواثق من نفسه: ليخبطوا رءوسهم فى الحيط إن رءوسنا أنشف.

نفس الوجه المصرى الفلاحى الأسمر رأيته عندما جلست أتحدث مع المهندس مشهور أحمد مشهور قبل أسابيع فى الإسماعيلية ـ نفس الصوت الهادئ الواثق من نفسه العارف لما يعمل ، الصادق فيما يقول فى كل ما يقول.. ورجال فرقة الشرف عرفوا أنهم يرثون شركة حسنة الإدارة: قواعد إدارية ودفاتر دقيقة وأسس علمية قويمة فاحترموا ذلك ودرسوه وتعلموا منه. هذه عبقرية ولا شك ، عرفوا أن ذلك كله ينبغى أن يستمر ويتمصر وكان اختيارهم لرجالهم دقيقًا صادقًا ، هناك شركات كثيرة أممت فى ذلك الحين وتولاها بعد التأميم مصريون كان همهم الوحيد التهويل والطبل والزمر وفى ضجيج الطبل والزمر راحت الشركات وأفلست وأصبحت اليوم عبئا على مصر.

شباب مصر الذى تولى القناة لم يعرف من ذلك شيئا ، وبالثبات والإيمان قدموا لمصر أجل خدمة قدمت لها بعد الثورة وتنظيم الجيش بعد نكسة يونيو ١٩٦٧م.

وفشل عدوان ١٩٥٦م انسحب الإنجليز والفرنسيون وعاد الثعلب الصهيونى إلى وجارة مقطوع الذيل ، وسارت هيئة القناة ، كل الدفاتر القديمة حفظت بعناية ، كل المؤسسات العلمية الخاصة بالقناة حافظوا عليها. عندما استقر كل شىء واقتنعت الدنيا بأن مصر قادرة على السير بالقناة ذهبوا إلى باريس ، هناك كان المركز الإدارى والمراكز العلمية للقناة درسها وفهموها وأتوا لمصر بما استطاعوا منها ، وأنشأوا كل شىء فى مصر على أساس علمى حديث ، ودربو الشبان والعلماء من أبناء مصر ، وخير ما فى تركة قناة السويس انتقل إلينا ، كل ذلك فى صمت لأن الجد صمت والحب الصادق صمت والعمل النافع صمت. ورسول ﷺ قال إن الصدقة التى يحبها الله هى الصدقة التى لا يعلم بها إلا الله سبحانه وصاحبها لا تعلم شماله ما أعطت يمينه.

□□□

ويمضى محمود يونس وتنقل الأمانة إلى مشهور. ويتوفى محمود يونس بعد ذلك فى سكون الأبطال الصادقين ، كما مات البكباشى محمد عبيد على مدفعه فى موقعة التل الكبير..من مآسى تاريخنا العربى أن الأمة العربية لم تعرف أبطالها. عندما مات خمارويه بن أحمد بن طولون خرجت نساء القاهرة نادبات ثابا تافها لا يذكر له التاريخ إلا أنه جهز ابنته بالف هاون من الذهب عندما تزوجت خليفة تعيسا. ولكن الفتى «شمايل» الذى انقذ دمياط من حصار الصليبيين مات دون أن يسمع بموته أحد.. ولكن عزاءنا الأكبر أن الذى تولى القناة بعد محمود يونس كان أخاه وزميله فى السلاح مشهور أحمد مشهور. إنه مهندس ضابط أيضا وشاب

من خيرة شباب ثورة يوليو ، إنه فلاح مصرى أصيل يحمل على كتفيه تراث أسرة مصرية جليلة فى قرية السعديين مركز منيا القمح ، وضع الرجل كل تراثه القومى وعلمه وصدقه فى خدمة مصر ، وضرب مثلا رائعا فى الإدارة السليمة الذكية ، والإدارة مادة لا يعرفها أكثر المصريين ، لأنها لا تدرس فى مدارس ولا تورث فى الأسرة ، ولكنها خلق وذكاء وحزم ومحبة ورحمة وفن أيضًا ، من ساعة خروجك من القاهرة فى طريقك إلى الإسماعيلية تشعر بمعنى الإدارة السليمة ، ومدينة الإسماعيلية كما حافظ عليها مشهور وكما نهض بها مع رجاله جامعة نستطيع أن نتعلم فيها معنى الإدارة ، ليس فى الدنيا مشروع ينجح مع الإدارة السيئة. ومصر فيما أظن تملك من الرجال الذين يحملون لقب مدير عام أكبر عدد فى الدنيا وربما فى التاريخ، ولكن مصر ذات رقم قياسى أيضا فى سوء إدارة الأعمال.. إلا هنا.. هنا تجد المدير الكبير رئيس هيئة قناة السويس فعلاً والد أسرة كبيرة، إنه الرئيس والأب والقدوة وهو يعرف أن الإدارة الحديثة أوروبية ، ولهذا فإن صلته بالغرب مستمرة ، مراكز أبحاث القناة دائما على اتصال بالغرب ، ورجال القناة الذين يزورون الغرب لا يعودون كما يعود غيرهم بالكرافتات وزجاجات العطر للزوجات بل يعودون بالعلم والخبرة والتجربة، وهم لا ينسون هدايا الأسرة قط لأن رب الأسرة رئيس الهيئة يضرب لهم المثل فى ذلك ، وعندما دخلت الدنيا عصر الإلكترونيات دخلتها القناة ، وفى هيئة القناة اليوم أعظم جهاز تسجيل ومراقبة بالرادار والإلكترونيات. أنشأه ويديره شباب مصرى يشرح القلب.

ولأن الرجل مؤمن بمصر يجمع فى صدره بين الإيمان الصادق بالله والإيمان الصادق بمصر والإيمان الصادق فى العلم ، فهو يسير فى طريقه من توفيق إلى توفيق ، وعندما بدأت حرب الاستنزاف فى سنة ١٩٦٩م وصدر الأمر بنقل كل إدارة القناة ورجالها خارج منطقة الخطر حافظ رب

الأسرة على قناته ورجاله أجمعين. خارج القناة من مقره الجديد فى مدينة نصر وجد لكل رجل من رجاله عملا ، وهيئة القناة دخلت بهذا فى أعمال ومشروعات إنشائية شتى ، لأن الرجال لا ينبغى أن يتركوا مهملاً ، فتصدأ ملكاتهم ، وكل معدات القناة حافظوا عليها وساروا فى طريقهم. رأس المال المادى زاد ورأس المال البشرى زاد ، الرجل الذى عهدت إليه مصر بالأمانة عرف كيف يحافظ على الأمانة ، عرف كيف ينهض بها ويزيد مالها وحقوقها ، إنه رجل وقدرة.. إنه رجل مدرسة..

من ١٩٦٧م إلى أكتوبر ١٩٧٣م أصاب القناة من الأذى ما لم يصب غيرها. كانت هى جبهة القتال: على إحدى ضفتيها قام أبطال مصر ، وعلى الضفة الأخرى قام الإسرائيليون ، أثناء معركة النصر الكبرى فى أكتوبر ٧٣ بلغ الأذى بالقناة مداه ، والإسرائيليون الذين عرفوا طعم الهزيمة لأول مرة أصابهم سعار الخوف على ضياع الهيئة ، فاقتحموا القناة عند الدفرسوار وردموها فعلا لينشئوا جسرا يعبرون عليه ليعبروا إلى الضفة الغربية ، هنا كانت القناة المصرية تحارب مع مصر فعلاً. ومشهور أحمد مشهور دون شك من أبطال أكتوبر. فى نهاية حرب أكتوبر كانت القناة قد أصبحت حطاماً: المجرى مسدود والضفاف منهارة والماء والضفاف ملغومة وسفن غارقة كثيرة وعدو مستأسد يحترق لأن حلمه الأكبر – خط بارليف – اقتحمه المصريون واحتلوه.. هل تعلم أن خط بارليف اليوم جزء من مجرى القناة؟ أجل فإن رجال القناة فى مشروعات توسيع قناتهم وإنشاء ما يسمى بالتفريعات مدوا القناة شرقاً حتى دخل فيها خط بارليف وخط التحصينات الذى ظنت إسرائيل أنه يؤمنها ضد أية محاولة لمصر للعبور أزيل من الوجود ، وتوسعت القناة شرقاً ، وبلغت المساحة المائية لقناة مصر فى ظل الإدارة المصرية ١٤ مرة حجم مساحة قناة ديليسبس..

□□□

إن مقارنات الأرقام تعنى الكثير ، ولكن الذى يعنى أكثر هى مقارنات الناس. عندما جلست فى دار ديليسبس شعرت – للمرة الأولى فى حياتى– باحترام لذلك الرجل الذى نفذ مشروع القناة فى ظروف مستحيلة. رجل صغير ضئيل حفر القناة بأظافره تقريبا ، وكنت لا أحبه والآن أقول وماذا كنا نريد من ديلسبس؟ أن يخدم مصر؟ ولماذا يخدمها؟ أليس فرنسيا مهمته أن يخدم فرنسا وقد فعل ، فإذا كنا نحن المصريين نريد أن نخدم مصر فلنخدمها كما خدم ديلسبس وطنه..

قلتها لنفسى وأنا جالس إلى مكتب ديليسبس وبيدى ريشته التى كان يكتب بها ، قلتها راضى النفس أحس بالعزة تملأ قلبى ، لأن وطنى مصر أنجب رجالاً زادوا على ديليسبس فى ميدانه. ثلاثة منهم مضوا إلى ربهم: أولهم عبد الناصر بطل شهم من صناع التاريخ ، وثانيهم محمود يونس، مهندس ، مهندس ضابط صادق عفيف حازم ، وثالثهم أنور السادات ، بطل هز الدنيا وانتزع القناة وسيناء من أظافر الذئاب الجائعة وفتح القناة فى خط النار. والرابع ضرب لنا مثلاً فى الوطنية الصادقة كيف تكون ، وفى الإدارة السليمة البعيدة النظر كيف تكون ، وجعل شق الأرض الذى حفره ديليسبس قناة تمر فيها الدنيا إذا شاءت ووضع جهاز القناة فى مقدمة ركب الحضارة ، وهذا الرجل مهندس ضابط فلاح مصرى يعيد على الدنيا قصة أمحتب مهندس التاريخ الأول ، إنه مشهور أحمد مشهور الذى يقف – مد الله فى عمره – عند أكبر مفترق طرق على وجه هذا الكوكب. عندنا مثل سطحى يقول: ليس هناك رجل لا يعوض خطأ ، كل صناع التاريخ والحضارة لا يعوضون ، بل لا يقلدون ، ولباب العبقرية يكمن فى أنها لا تتكرر. والرجل الذى يقف بقناة مصر على مفترق طرق الدنيا لا يعوض. لماذا لا نتعلم من اليابان هذا الدرس الواحد. الرجل الممتاز يظل مكانه لأن عمره لا يحسب بالسنين.. □